مسئولية
الاحتلال الانجليزى لمصر

للأستاذ كمال السيد درويش

— ١ —

فى مثل هذا الشهر من عام سنة ١٨٨٢ تمّ الاحتلال الانجليزى لمصر . ذلك الاحتلال الذى لم تستغرق حوادثه — منذ ضرب الاسكندرية فى الحادى عشر من شهر يوليه الى استسلام عرابى بالقاهرة فى الرابع عشر من شهر سبتمبر — سوى شهرين اثنين . ولموقعة التل الكبير أهميتها الخاصة بعد تحصينات كفر الدوار فى حوادث ذلك الاحتلال مع أنها لم تدم سوى عشرين دقيقة فرّ بعدها عرابى إلى القاهرة ليستسلم فى اليوم التالى .

ولقد دعت السهولة التى تمّ بها الاحتلال الانجليزى لمصر إلى الاختلاف حول تحديد المسئولية فى ذلك الاحتلال . أتقع المسئولية على عاتق عرابى أم على عاتق الدولة العثمانية أم على الإنجليز وجشعهم الاستعمارى ؟

وهكذا تأرجحت آراء الكتاب حول هذا الموضوع بين هذا الرأى أو ذاك .

عرابى هو المسئول الأول والأخير . لقد اعتنق بعض الكتاب هذا الرأى وأيدوه بحجج قوية .

ألم يدفع بسلوكه الخديو إلى الارتماء فى أحضان الإنجليز ؟ ألم يهمل الدفاع عن حدود مصر الشرقية ؟ أما كان من الحكمة أن يلجأ إلى سدّ القناة فيؤخر الزحف الإنجليزى على الأقل إن لم يمنعه ؟ يقول له دلسبس فى تلغرافه : « إن الإنجليز يستحيل أن يدخلوا القناة ، يستحيل » فينخدع بهذا التلغراف وبالتلغراف الذى يليه : « لا تعمل عملاً ما لسد قناتى ، فإنى هنا ولا تخش شيئاً من هذه الناحية ، إذ لا ينزل جندى إنجليزى واحد إلا ويصحبه جندى فرنسى ، وأنا المسئول عن كل ذلك » .

أى قائد هذا الذى يصدق مثل هذا التصريح الأجوف فيركن إليه فى تحصين بلاده ؟ ألم يقل فيه صديقه جون نينيه « إن بساطة

فى البلدين ، أما السفير الأميركى فاكتفى بأن قرأ على مجموعة من برقيات واشنجتون وكلها تشرح وجهة النظر الأميركية التى تتمسك بنصوص نظام ميثاق الأطلنطى وأنه يجب كل ماعداه . ولا لزوم لتعقد مثل هذه المعاهدات : ومن هنا فهمت سر التطور الجديد ضد فرنسا .

كثرت مقابلاتى فى شهر مارس سنة ١٩٤٣ مع الجنرال كاترو وتناولت أحاديثى معه عدة مسائل كان بعضها خاصاً بمركز القوات الفرنسية ومعسكراتها فى مصر . وفى إحدى هذه المقابلات أشار إلى المتاعب التى يلقاها لجمع شمل رجال السياسة السوريين وقال إنه دائم الاتصال بهم ويحاول جهده التغلب على الصعاب التى تبرز كل يوم أمامه . وكان مما ذكره أن عودة الدستور والحياة النيابية إلى سوريا ولبنان أمر مفروغ منه ، وهذا تنفيذ لما تم الاتفاق عليه بالقاهرة ، ذلك الاتفاق الذى اعتبره الجنرال خاصاً به ، ولقد بذل الجهود حتى أقنع الجنرال ديجول ولجنة الفرنسيين الأحرار ، حتى وافقوا على تنفيذه ، وأن المشروع الذى أوحت به مصر يعد فى نظره الحل الوحيد المطابق لروح المبادىء الدستورية ، ولذا فهو الذى يسعى أن ينفذه فى كل من سوريا ولبنان على السواء . وعند اقتراب انصراف أشر إلى بأن مركز فرنسا وديعة فى يده ولذلك فإنه سيحتفظ بالمصالح المشتركة لحين التفاهم على معاهدة التحالف بين البلدين . ولم أعلق على هذا التصريح بشىء علماً منى بأن الظروف قد بدأت تسير فى اتجاه آخر مضاد لفكرته ، وإن أساليب السياسة البريطانية قد بدأت تؤتى أكلها فى كل من سوريا ولبنان وتوجه القادة إلى وجهة نظرها .

وفى ١٣ مارس سنة ١٩٤٣ علمت من عدة مصادر أن الجنرال كاترو لم يعد يتعرض بتاتاً لمعاهدة ١٩٣٦ فى أحاديثه مع الساسة السوريين ، وظهر أن هذا كان نتيجة إيماء البريطانيين امتعاضهم . ولكنى علمت بأن شكرى بك القوتلى مصرّ على رفض رئاسة الوزارة إذا عرضها عليه هاشم بك الأتاسى . ولما أشير إلى خالد بك العظم أجمع الساسة على أن صحته سوف لا تمكنه من مواجهة الحالة القادمة وما تتطلبه من كفاح ومجالدة أمام مجلس النواب . وهنا بدأت المفاجأة الثانية .

(يتبع)

أحمد رمزى

عرابي جملته يرتكب أغلاطاً كبيرة ظهرت عواقبها بعد ، فبمقدار ما بذل من الهمة في الدفاع عن الإسكندرية وتحصين خطوط الدفاع في كفر الدوار بحيث امتنعت على الإنجليز ، قد أظهر منذ ابتداء القتال غفلة بالغة إذا استمع إلى النصائح الكاذبة التي خدعه بها السيو فردينالد دليسبس حين زعم أن الإنجليز لايمكن أن يتعرضوا للعمل الفرنسي ، فامتنع عرابي عن سد القناة في الوقت المناسب واستمسك برأيه رغم ما كانت تحتمه الخطط الفنية الحربية ، ورغم ما ارتآه زملاؤه وما ارتأيته أنا وكررته عشر مرات تارة بالقول القارس وطوراً بالكتابة في وجوب سد القناة ؛ ورغم كل ذلك أصرّ عرابي على رأيه فمهد للجنرال ولسلي نصراً من أسهل ما عرف في تاريخ المعارك »[1]. ويحذره جون بينيه قائلا: « إن قناة السويس هي خط الدفاع الوحيد الذي لكم في هذه الناحية ، وإذا لم تحتلوه فسيحتله العدو غداً ولن يجد صعوبة في احتلاله »[2] ومع ذلك كله يأبى عرابي إلا أن يصمّ أذنيه ويقف مكتوف اليدين حتى تساءل كاتب تاريخ الحركة القومية بقوله : « فليت شعري ما الذي جعله يعدل عن هذا الرأي الصواب ويمتنع عن سدّها حتى احتلها الإنجليز ؟ »[3] وموقعة التل الكبير !! كيف يخوض تلك الموقعة الفاصلة وهو بعد لم يستكمل وسائل الدفاع ؟ لقد أقيمت خطوط الدفاع على عجل ، ولم تكن هي في ذاتها محكمة الوضع . يقول المستر بلنت في التاريخ السري للاحتلال : إن جيش عرابي بالتل الكبير لم يكن يزيد على عشرة آلاف أو اثني عشر ألف جندي ، والباقون كانوا من المجندين الأحداث الذين لم يسبق لهم إطلاق بندقية واحدة . أضف إلى ذلك أن خيرة الجنود لم يكونوا بالتل الكبير بل كانوا في كفر الدوار أو في دمياط ، وهؤلاء لم يشتركوا قط في المعركة ، وكان من حسن التدبير أن يستدعي عرابي على الأقل الألاي المرابط في دمياط لأنه كان يحتوي على خيرة الجند المدربين ، ولكنه لم يفعل . بل لقد عهد عرابي بالقيادة إلى علي باشا الروبي الحضر قبل الواقعة بيوم واحد وهو وقت لا يكفي لتعرف مواقع القتال ووضع الخطط الصالحة .

وكيف لا يشتم رائحة الخيانة في صفوف أعوانه !! أترمم خطة الموقعة ليلا فلا تستقر في نفس الليلة إلا عند الأعداء !! ويتحرك الجيش الانجليزي إلى أن يصل إلى ميدان الموقعة مسافة تبلغ نحو خمسة عشر كيلومتراً دون أن تصادفه طلائع المصريين؟ أيوقع الإنجليز بالجند « على حين كان راقداً فدهشت العساكر وتولاها الاندهال حيث رأوا ضرب النار من خلفهم وأمامهم ، فألقوا أسلحتهم وفروا طالبين النجاة » على حد قول عرابي نفسه في روايته عن تلك المركة .

وأخيراً كيف يرتضي عرابي لنفسه أن يرمي لفرسه العنان ثم يستسلم بعد فراره هذا الاستسلام الذليل ؟ لقد قال الرافعي بك في هذا الموقف الذي ختم به عرابي فصول الثورة : « ولكن عرابي آثر الحياة على الواجب المقدس فقد روح البطولة والتضحية ، ولم يكن هذا عهده للأمة قبل نشوب الحرب ، فقد كان يقول إنه لا يخشى تهديد إنجلترا ولا أوربا ولا تركيا وإنه مُصرٌّ على أن يدافع عن مصر حتى آخر رمق من حياته . فليت شعري لم يف بعهده فيكون دفاعه على الأقل صفحة بطولة في تاريخه وفي تاريخ مصر ، أما إذا كان معتزماً التسليم لمجرد الهزيمة فكان الأولى به أن لا يشاور بالبلاد في حرب أدّت إلى الاحتلال والهوان ، فهزيمة التل الكبير لم تكن هزيمة عرابي وحده أو هزيمة لجيشه بل هي هزيمة لمصر بأسرها إذ كانت نتيجتها الاحتلال البريطاني »[1] بل لقد ذهب الكاتب إلى أبعد من ذلك في تفسير فرار عرابي فقال إنه لم يفر من الموقعة ليواصل الجهاد ولكن لكي ينجو بنفسه ؛ ولو كان مجاهداً حقاً لظلّ يجاهد حتى آخر نسمة من حياته .

أفلا يرى القارئ العزيز إلى أيّ حد يذهب بعض الكتاب في إلقاء مسئولية ذلك الاحتلال المشئوم على عاتق عرابي والعرابيين؟ إن الاتهام تلو الاتهام ينصب في غير رحمة أو هوادة على العرابيين وعلى رأس عرابي بالذات .

ولكن مهلاً أيها القارئ العزيز فسنستعرض بقية الآراء حتى نعثر على الحقيقة في ثنايا ذلك الاستعراض فتكون الحقيقة

(١) الثورة العرابية والاحتلال الانجليزي . عبد الرحمن الرافعي ص ٤٣٢ نقلاً عن جون بينيه — عرابي باشا ، ص ١٠٥

(٢) عبد الرحمن الرافعي بك . الثورة العرابية ص ٤٣٣ ؛ نقلاً عن جون بينيه عرابي باشا ص ١٠٥

(٣) عبد الرحمن الرافعي بك . الثورة العرابية ص ٤٣٣

(١) عبد الرحمن الرافعي بك . الثورة العرابية . ص ٤٠٦ ، ٤٠٧

والحقيقة وحدها سبيلنا إلى تحديد المسئولية والمسئولين وحتى نستطيع استخلاص العبرة من تاريخ ذلك الاحتلال .

— ٢ —

لا ، ليس عرابي هو المسئول . ولكن المسئول الأول والأخير هو الدولة العثمانية . تلك الدولة التي دبّ الضعف والانحلال في جميع أرجائها فاستحقت بذلك لقبها المشهور « الرجل المريض »

ألم تقف الدولة العثمانية عقبة كؤودا في سبيل نهوض مصر؟ ألم تعمل السياسة العثمانية على إبقاء مصر ضعيفة ظناً منها أن هذا الضعف هو الوسيلة الوحيدة لبقاء مصر داخل نطاقها ؟ ! ثم هذا الموقف المضحك المزري الذي وقفته إزاء الثورة العرابية ! كيف ترتضي لنفسها الاشتراك في تمثيلية مؤتمر الآستانة ؟ ! وبأي حق تسمح للدول الأوربية أن تقحم أنوفها فيما لا يعنيها ؟!

وكيف تنخدع هي الأخرى بهذا المؤتمر وبسراب الخطب التي ألقيت فيه ؟ يضع مندوبو الدول في هذا المؤتمر ما أسموه : « ميثاق النزاهة » وفيه تتعهد الحكومات التي يوقع مندوبوها على هذا القرار بأنها في كل اتفاق يحصل بشأن المسألة المصرية لا تبحث عن احتلال أي جزء من أراضي مصر ولا الحصول على امتياز خاص بها ولا على نيل امتياز تجاري . . الخ »

أحقاً هذا ؟! أحقاً ينخدع الباب العالي ويؤمن بنزاهة الميثاق وتنجح السياسة الإنجليزية في انخداعه بخلب اللفظ أثناء الاحتلال . خطب اللورد دفرين سفير إنجلترا وممثلها في المؤتمر فعرض لتفاصيل الحالة في مصر قائلاً : « إن وزارة راغب باشا هي أداة في أيدي الثائرين ، وأن الخديو لا حول له ولا قوة . ثم أهاب بالدول أن تأخذ الثورة المصرية — على حدّ قوله — بالشدة حتى لا يستمر نفوذها فلا يعود من السهل استئصال شأفتها . وقال إن الوسائل الفعالة التي يجب اتخاذها لإعادة حكومة منتظمة إلى مصر يجب أن تصدر عن الحضرة السلطانية .

وهكذا نجحت إنجلترا في إقرار مبدأ التدخل في شئون مصر الداخلية . بل إن جمود الدولة العثمانية كان سبباً في تمكين الإنجليز من التدخل بمفردهم بعد أن خلقوا « الحالة القهرية » التي استدعت في زعمهم ضرب الإسكندرية .

ألم تكن مهزلة المهازل أن يتم ضرب الاسكندرية واحتلالها ومؤتمر الآستانة مع ذلك موجود ولا يستحي المندوبون فيه من مواصلة عقد الجلسات بعد أن تمّ ذلك العدوان ؟

ألا تكون الدولة العثمانية مسئولة عن هذا الاحتلال وهي التي مكنت — سواء بضعفها أو غفلتها أو جمودها — من التدخل الإنجليزي باسمها وباسم الخديو ؟ !

كيف ترضى الوقوف في جانب الإنجليز — وهي تعلم سياستهم ونياتهم فتؤيدهم بنفوذها الروحي والسياسي وبجاريها في ذلك الخديو فيطعن الحركة العرابية في الصميم بإيقاع الانقسام بين رجالها وبالتالي في القضاء عليها ؟ كيف ترضى الدولة لنفسها هذا الموقف العجيب فتؤيد دهاقنة الإنجليز ضد عرابي — عرابي الذي كانت تعلم حق العلم حقيقة نواياه وأطماعه . أليس من العجيب أن يكون عرابي من الخطورة على الدولة العثمانية وعلى الخديو بحيث يضطرها إلى الاستعانة بإنجلترا في القضاء عليه ؟ أما كانت الدولة العثمانية بتصرفها هذا كالمستجير من الرمضاء بالنار ؟ والله يعلم أن حركة عرابي والعرابيين كانت على الدولة وعلى مصر أبعد شيء عن الرمضاء ، وأن الانجليز كانوا على البلاد وعلى الدولة أشد خطراً من النار .

ألم يكن موقف الخديو من الحركة العرابية معولاً قوياً من معاول هدمها ؟ كتب الخديو إلى الأميرال سيمور بعد ضرب الاسكندرية يقول على لسان رئيس وزرائه : « كونوا إذن على علم بأن الجناب الخديو عزم على عزل عرابي من وظيفته ، فهو قبلك وحده المسئول عما يحدث » وبرسل الخديو تلغرافاً إلى عرابي يكفر الثوار يأمره بالكف عن الاستعدادات الحربية ويؤيد بذلك وجهة النظر الإنجليزية في ضرب الاسكندرية « اعلموا أن ما حصل من ضرب المدافع من الدونتمة الانجليزية على طوابي الاسكندرية إنما كان السبب فيه استمرار الأعمال التي كانت جارية بالطوابي وتركيب المدافع التي كنا يصير الاستفهام عنها كان يصير إخفاؤها وإنكارها » ثم يعزله في النهاية « لقد عزلناكم من نظارة الجهادية والبحرية ، وأصدرنا أمرنا هذا لكم بما ذكر ليكون معلوماً » ويكتب الخديو بعد ذلك منشوراً إلى الأمة يحذرها فيه من الانضمام إلى عرابي وإلى مناصرة الجيش الإنجليزي والامتناع من معاونة العرابيين .